

الخطاب الإعلامي لصحيفة القدس خلال الحرب على غزة...

قراءة نقدية في افتتاحياتها

٢٧ / كانون أول / ٢٠٠٨ - ١٩ كانون ثاني / ٢٠٠٩

عوني فارس*

يلعب الخطاب الإعلامي المقروء في فلسطين دوراً في تشكيل الرأي العام ويساهم في صياغة الهوية الفكرية والسياسية والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين الفلسطينيين وتعبيراتهم الفصائلية والحزبية المختلفة. وكان لصحيفة القدس الفلسطينية دوراً في تثبيت وجود الصحافة المقروءة في فلسطين بعد النكبة، ومارست لسنوات طويلة تأثيراً على قطاعات كبيرة من القراء الفلسطينيين.

تسعى هذه المقالة لتقديم قراءة نقدية للخطاب الإعلامي لصحيفة القدس الفلسطينية، وترصد وتحلل مقارنة الصحيفة للحرب الأخيرة على قطاع غزة، معتمدةً بالأساس على ما جاء في افتتاحية الصحيفة «حديث القدس» في الفترة ما بين ٢٧ / كانون أول / ٢٠٠٨ - ١٩ / كانون ثاني / ٢٠٠٩.

وتفترض أنّ استجابة الصحيفة لمجموعة من الضغوط والتأثيرات على رأسها حالة الانقسام الفلسطيني الراهنة قد ساهم بشكل كبير في تبنيها لخطاب إعلامي تراوح بين إدانة الحرب وتجريم الاحتلال من جهة وعدم اعتبارها حرب الكل الفلسطيني من جهة أخرى، إضافة إلى استخدامها للغة أقرب للحيادية الإعلامية تجاه ما جرى في غزة، بل ووقوعها فريسة لبعض مقولات الإعلام الغربي الذي ناصر الاحتلال في عدوانه.

محاورة الدراسة :

جلبت الحرب الإسرائيلية الأخيرة على قطاع غزة موجة عارمة من التفاعلات، وأثارت عدداً كبيراً من القضايا التي كانت مدار نقاشٍ عاصفٍ في وسائل الإعلام، وقد ركزت الصحف وفي مقدمتها القدس على جانب منها كأهداف الحرب، ووحشية العدوان الإسرائيلي، والدمار الهائل الذي أصاب القطاع، والحراك الدبلوماسي الذي واكب العمليات العسكرية، وردود الفعل الفلسطينية الرسمية الصادرة من رام الله، ودور القوى الإقليمية كمصر وتركيا، والدولية كالولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية والمؤسسات الدولية كمجلس الأمن الدولي.

* عوني فارس: باحث فلسطيني مقيم في مدينة رام الله.

ونظراً لتشعب القضايا المتعلقة بموضوع الدراسة، فقد اختار الباحث بعضاً من العناوين الهامة وذلك على خلفية كونها محاور جوهرية في أي تحليل يتناول الأبعاد المختلفة للعدوان الإسرائيلي الأخير على القطاع، وأنها شكلت عصب المادة المكتوبة في افتتاحيات الصحيفة.

أهداف الحرب

تكشف مراجعة افتتاحيات الصحيفة إلى أن هدف استعادة الاحتلال لقوة الردع التي خسر جزءاً كبيراً منها منذ الانسحاب من جنوب لبنان في العام ٢٠٠٠م هو الأكثر تردداً، وقدم باعتباره هدفاً رئيساً للحرب. أما أول ذكر لأهداف حرب «الفرقان» كما تطلق عليها المقاومة الفلسطينية أو عملية «الرصاص المتدفق» كما يسميها الاحتلال الإسرائيلي، فقد ظهر في افتتاحية اليوم التاسع للحرب، فتحت عنوان «لا للعدوان والتصعيد» ذكرت الصحيفة أن هدف الحرب يكمن في «قتل أية تطلعات لنا في دولة مستقلة وهوية وطنية».

عادت الصحيفة لتناول الأهداف مرة أخرى، فتحدثت عن رغبة الجيش الإسرائيلي في كسر إرادة الرفض الفلسطينية والقبول للإسرائيل، وربطت في موقع آخر بين حمى انتخابات الكنيست الإسرائيلي وتساعد وتيرة الحرب، في إشارة إلى محاولات قادة الاحتلال كسب الرأي العام الإسرائيلي عبر التباهي بذبح الفلسطينيين^٢.

ورأت القدس بأن الأهداف الإسرائيلية حملت معها جانباً من الضبابية؛ نظراً لما اعتبرته تضارباً في التصريحات التي أدلى بها قادة الاحتلال؛ فمنهم من قال بأن «الهدف وقف إطلاق الصواريخ إلى قائل بأن الهدف إسقاط حكم حماس وتغيير الوضع في غزة إلى قائل بأن الهدف هو منع تحويل القطاع إلى «جبهة إيرانية» متقدمة على حدود إسرائيل الجنوبية»^٣.

تشير قصة ضبابية الأهداف الإسرائيلية من الحرب على غزة، كما قدمتها صحيفة القدس، تساؤلاً هاماً حول مستوى التحليل الذي أفضى لهذا الاستنتاج، فرغم أن الصحيفة لم تغفل الإشارة إلى الدروس والعبر التي استخلصها الاحتلال من حرب تموز على لبنان وخصوصاً فيما يتعلق بالإعلان عن أهداف الحرب، ناهيك عما تحويه أجنداث الاحتلال من ملفات سرية وتحديداً عند المنعطفات الهامة كالحروب وعمليات الاجتياح الكبرى، إلا أنه من الصعب على المتابع للشأن الفلسطيني الوصول إلى خلاصة تفيد بأن أهداف الحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة غير معروفة بالاستناد إلى بعض التصريحات الواردة أعلاه.

إن المراقب للسياسة الإسرائيلية لا يمكن أن يتجاهل المستوى المرتفع من العلنية في الإعلان عن استراتيجيات وأهداف الخطط الإسرائيلية فيما يتعلق بالشأن الفلسطيني، وما مقررات مؤتمر هرتزليا السنوي على سبيل المثال عناً ببعيد، وللتذكير يمكن العودة إلى أمثلة ما زالت طازجة على مستوى زمن الحدث وتداعياته كالانسحاب أحادي الجانب من القطاع، عملية السور الواقعي، محاصرة الرئيس عرفات واستشهاده، الحرب الأخيرة على لبنان... إلخ.

ولابد من الإشارة إلى أن أهداف الحرب قد صيغت إعلامياً بصورة شبه رسمية على لسان وزراء وقادة الاحتلال، وما ورد في أقوالهم لا يشير لأية تناقض أو ضبابية، فقائمة الأهداف منسجمة،

ولا يتعارض على سبيل المثال هدف إسقاط حكومة حماس مع استعادة شاليط أو وقف الصواريخ... الخ.

عرضت صحيفة القدس في افتتاحيتها جانباً مهماً من أهداف الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة. لكنّها، على عكس المتوقع والمأمول، لم تعط الموضوع المساحة الكافية من الاهتمام، فلم يكن عنواناً لأية افتتاحية طوال أيام الحرب، ولم يتم تناوله في إطار تحليلي متماسك، ولم يُشر بعمق إلى بعض الأهداف التي كانت محط إجماع لدى المستويين السياسي والعسكري الإسرائيليّين. لقد أغفلت الصحيفة جزءاً رئيساً مما يُعتقد أنّه أحد أعمدة التصور الإسرائيليّ لحروبها في المنطقة، فلم تعر اهتماماً لمكانة الحرب في ذهنية صانع القرار الإسرائيليّ وتركيبته النفسية والفكرية وبرامجه السياسية، أو أهمية الحرب في إطار الدور الذي تلعبه إسرائيل ضمن المنظومة الدولية التي تنزعمها الولايات المتحدة، أو دور الحرب كآلية لضرب أية محاولة فلسطينية أو عربية للنهوض ومواجهة الاحتلال، أو الأبعاد السياسية للحرب كمحاولة استخدامه وسيلة لكسر الجمود في الموقف السياسي بين المقاومة والاحتلال ومعبراً لتسويق حلول سياسية للقضية الفلسطينية. أمّا الملاحظة الأخيرة في موضوعة تناول الصحيفة لأهداف الحرب فتركز حول عدم شمولية العرض والتحليل، ومناقشة الموضوع باقتضاب شديد وفي معرض الحديث عن قضايا أخرى كدموية آلة الحرب الإسرائيلية أو الحراك الدبلوماسي الإقليمي والدولي والمسعفي الرامية لوقف الحرب... الخ.

وصف الحرب

جاءت افتتاحية اليوم التالي لبدء الحرب تحت عنوان «يجب وقف هذا التصعيد»، وقد وصفت الغارات الإسرائيلية بأنّها عملية عسكرية واسعة ضد قطاع غزة، وربطت بين العدوان الإسرائيليّ الأخير وانهاية التهديّة، ورأت بأنّ رفض الفصائل الفلسطينية تجديد التهديّة أدى إلى ردة فعل إسرائيلية عنيفة قابلها تصعيد فلسطيني في إطلاق الصواريخ، ورد إسرائيليّ أعنف «حتى وصلنا إلى الحالة التي وصلنا إليها بالأمس، ولا يعرف أحد كيف تنتهي أو حتى كيف تتوقف».

لعل الباب الذي ولجت منه الصحيفة للتعبير عن رؤيتها في اندلاع الحرب يشير إلى تسرع في إصدار الأحكام، إذ لا معنى للشروع في عملية النقد الداخلي، وتحميل المقاومة الفلسطينية المسؤولية السياسية والأخلاقية مع سقوط الدفعة الأولى من الشهداء. والمطلوب في ظل الحرب التركيز على الوحدة ومواجهة أهوال البطش والتدمير الذي صبّته آلة الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة.

تنوعت العبارات المستخدمة في وصف ما يجري في القطاع بفعل آلة الحرب الإسرائيلية، فهي «مجزرة وحشية» و«أهوال حرب حقيقية» و«حرب إبادة وتدمير وقتل»... الخ. لكنّ المستغرب والمؤسف في آن معاً يكمن في وقوع الصحيفة، وبعض وسائل الإعلام الفلسطينية، تحت تأثير الخطاب الإعلاميّ الغربي المنحاز بالكلية لصالح الاحتلال، يظهر ذلك جلياً في ترديد جانبٍ من مقولاته والتي طالما حاول من خلالها التخلص من عبء الاحتلال وتسويق

المجزرة اليومية التي ترتكبها القوات الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني باعتبارها حالة من العنف المتبادل، فتحت عنوان « قصف مقر الأونروا » حذرت الصحيفة من مغبة استمرار الحرب، لأنها برأيها، ستؤدي إلى « تكريس الحقد والكراهية والتأسيس لجولات لا تنتهي من العنف والعنف المضاد بأضعاف مستوياتها الحالية »^٤.

لقد وقعت الصحيفة في مربع الخطأ الذي أنكرته على الآخرين حينما لامت بعض القوى الغربية كالولايات المتحدة والإتحاد الأوروبي على وصف الجرائم الإسرائيلية بحق الفلسطينيين بأنها حالة عنف يقابلها عنف آخر من قبل الفلسطينيين، فذكرت تحت عنوان «وصمة في جبين المجتمع الدولي» بأن « قادة أمريكا وأوروبا كانوا يقيمون الدنيا ولا يقعدونها عند إطلاق قذائف باتجاه إسرائيل لم تقتل ولم تجرح ١٪ من ضحايا قطاع غزة، نراهم اليوم يلوكون الكلمات بدعوات خجولة لوقف ما يسمونه بالعنف ويساوون بين الجانبين »^٥.

السلطة الفلسطينية

أولت الصحيفة اهتماماً بالموقف الرسمي الصادر من رام الله، واتخذت منحىً إيجابياً في تناول ردود فعل السلطة الفلسطينية، فأثنت على خطابها، ودافعت عن خياراتها، وأفرغت ما في جعبتها من حجج للتأكيد على صواب منهجها القائم على تبني المفاوضات كخيار استراتيجي ووحيد للخلاص من الاحتلال.

فتحت عنوان « يجب وقف التصعيد » باركت الصحيفة سرعة ردود فعل المقاطعة في رام الله التي « أدانت الغارات » وسلطت الضوء على تحركات الرئيس الفلسطيني محمود عباس، الذي أجرى « عدة اتصالات عربية ودولية في محاولة لوقف العدوان على غزة بالسرعة الممكنة، وتوفير التأييد الدولي والعربي المناسب لذلك »^٦.

وفي إطار توهج الفرز السياسي على الساحة الفلسطينية وتعمقه إثر استمرار الحرب، نحت الصحيفة، على عكس ما تمنى الكثيرون، منحىً بشأن الانقسام في الساحة الفلسطينية أكد انحيازها الواضح لطرف على حساب طرف آخر. فكانت مناصرة لتيار التسوية وللموقف الفلسطيني الرسمي الصادر عن رام الله، حيث وظفت مساحات كبيرة من افتتاحيتها لمهاجمة منتقديه، ووصفتهم « بالمتاجرين بالدماء »، واستهجنت ما اعتبرته حملة « تعبئة وتشكيك » لمواقفه تهدف إلى إظهاره وكأنه « شريك بالعدوان ».

وتساءلت عن هدف من يطالبون السلطة الفلسطينية بمواقف أكثر صلابة حيال الحرب، معتبرةً ما قامت به غاية المراد والمستطاع، فما « الذي تستطيع السلطة فعله ولم تفعله؟ وما الذي يفعله الآخرون ولا تفعله السلطة؟ ومن الذي يدفع الرواتب لعشرات الآلاف؟ ومن الذي يقدم الدعم الطبي وغيره إلى غزة؟ ومن الذي يطالب باستمرار بفتح المعابر ورفع الحصار عن غزة؟ »^٧.

أما بخصوص الرئيس الفلسطيني محمود عباس فقد امتدحت الصحيفة تصريحاته، وأشادت بقراراته، واستحسننت ما جاء في خطابه بمناسبة ذكرى انطلاق الثورة الفلسطينية، حيث أكدت بأنه جاء « معبراً عن هذا الواقع وعن التطلعات نحو تغييره ». ^٨ كما كرّرت الإشارة بإيجابية إلى تأكيدات

الرئيس الفلسطيني على الموقف الرسمي للسلطة في رام الله والمطالب بوقف نارٍ فوريٍّ، ورفض أية محاولة عسكرية لتغيير الوضع القائم في قطاع غزة .

لا شك بأن من حق الصحيفة أن تتبنى وجهة نظر معينة على الساحة الفلسطينية، كما من حقها أن تدافع عن ما تبنته، وأن تسعى لتعميمه، وهذا لا يوقعها في مربع الإدانة، كما قد يفهم خطأ من سياق الكلام السابق، لكن ما تلام عليه الصحيفة، وهي المعروفة بطابعها الحيادي فيما يتعلق بالشأن الفلسطيني الداخلي إلى حد كبير مقارنة مع غيرها من الصحف، هو تجاهل الموقف الآخر وعدم إعطائه مساحة كافية للتعبير عن نفسه، وهذا ما سنراه لاحقاً، مما مس الحيادية الإعلامية التي تتمتع بها وسمح لكثيرين بالنظر إليها بعين الريبة واتهامها بالفعوية .

عملية السلام

كان حضور مفهوم السلام وحل القضية الفلسطينية عبر طاولة المفاوضات في قلب افتتاحيات الصحيفة لافتاً، خصوصاً مع استمرار الحرب . وكان انتصارها لخيار السلام وجرأتها في الحديث عن العملية السلمية في ظل المجازر التي يرتكبها جيش الاحتلال واضحاً . فقد أعطت الصحيفة مساحة لانتقاد الحرب وما جلبته من دمار على القطاع من زاوية تأثير ذلك على مستقبل السلام، كما صُوّر السلام على أنه ضحية للحرب كما مئات الشهداء وآلاف الجرحى، وحُمّلت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل المسؤولية لضياع فرص التسوية .

وفي نفس السياق أكدت الصحيفة على ضرورة وقف الحرب، لأن استمرارها يؤدي إلى «تساؤل أكبر لاحتمالات السلام» بل « وقتل لكل أحلام السلام»^٩، وينعكس سلباً على طموحات الفلسطينيين الذين يأملون في تقدم عملية السلام وأن تؤتي ثمارها، كما أن « من حق غزة وأهلها أن تنعم بالسلام والحرية والأمان»^{١٠} .

وفي افتتاحية أخرى تحدثت الصحيفة بشيء من المرارة عن واقع العملية السلمية التي «توصد أمامها الأبواب»، والجمود الذي يكتنفها، وتندرت على «عدم تحرك مساعي السلام ولو خطوة واحدة إلى الأمام»^{١١} وبيّنت بأن المطلوب فلسطينياً وإسرائيلياً ودولياً «تفعيل عملية السلام العادل، التي هي وحدها الكفيلة بتحقيق الأمن والاستقرار»^{١٢}، وأشارت إلى اليقين الذي يغمر الفلسطينيين بتحقيق السلام في نهاية المشوار، وأوضحت ذلك بالقول بأنه «سيتحقق السلام العادل والشامل على الرغم من المماطلات في مفاوضات السلام مع السلطة الفلسطينية من جهة، والعدوان الغاشم على غزة من الجهة الأخرى»^{١٣} .

المقاومة الفلسطينية:

إن أية مراجعة متأنية لما جاء في الافتتاحيات، وبغض النظر عما يمكن أن تسوقه الصحيفة من مبررات، فهذا شأنها وحدها، ستوصلنا حتماً إلى السياسة الإعلامية التي تبنتها تجاه المقاومة الفلسطينية إبان الحرب، والقائمة على تجاهل وجودها التام، حيث امتنعت عن ذكرها أو استخدام مرادف لها من قاموس النضال الفلسطيني، ولم تشر من قريب ولا من بعيد إلى حقيقة وجودها أو خياراتها أو أصداء تكتيكاتها التي ساهمت بشكل فعّال في صد هجمات جيش الاحتلال ومنعه من

التقدم إلى داخل المدن في القطاع، كما تجاهلت مكامن قوة المقاومة الفلسطينية وعوامل ضعفها. لقد انتظرت الصحيفة حتى اليوم التاسع للحرب لتشير إلى المقاومة دون أن تسميها، فانتزعت، في سابقة لم يعهدها القارئ على صحيفة القدس، من قاموس الخطاب الإعلامي الإسرائيلي وصفاً شاداً، ولصقته بقوى المقاومة الفلسطينية فأصبح المقاومون مجموعة من «المسلحين» الذين يخشى الاحتلال منازلهم وجهاً لوجه^{١٤}. ولكن الصحيفة عادت وعدلت من لهجتها، وإن متأخراً، فوصفت فصائل المقاومة في افتتاحيتها الصادرة في ١٤ / ١ / ٢٠٠٩ «بالمقاتلين الفلسطينيين». أمّا مصطلح المقاومة فلم يحظَ باهتمام يذكر، ولم يرد استخدامه إلا بعد مرور اثني عشر يوماً على الحرب، ولم يكن ذلك في معرض تقييم أداء المقاومة الفلسطينية أو حتى مدحها على صمودها الذي لم يتوقعه كثيرون، ولكن في ثنايا الكلام عن قوة البطش والتدمير التي استخدمها الجيش الإسرائيلي وعدم التكافؤ في القوة العسكرية بينه وبين الشعب الفلسطيني. ويبدو أن الصحيفة انتظرت حتى نهاية الحرب لتستخدم المصطلح دون تردد وبكثافة غير معهودة ولمرة واحدة، فقد تكرر ذكره ثلاث مرات في افتتاحية واحدة أولها: عند الإشارة إلى إعلان الفصائل المقاومة عن التزامها وقف إطلاق النار، وثانيها: عند الحديث عن الجهود الدبلوماسية التي تواصلت «لإيجاد مخرج تقبل به كل من إسرائيل والفصائل المقاومة»، وثالثها: للحديث عن انتصار المقاومة حيث لم «تتمكن إسرائيل من تحقيق أهدافها... واتضح أن فصائل المقاومة... ظلت صامدة ولم ترفع الراية البيضاء»^{١٥}.

حركة حماس

بدت حركة حماس كلاعِبٍ ثانوي في مجمل افتتاحيات الصحيفة، ولم يتم تناولها إلا على هامش قضايا أخرى؛ كموقف مصر من فتح معبر رفح، أو الأهداف التي سعى الاحتلال لتحقيقها بقوته العسكرية، أو الحراك الدبلوماسي المواكب للحرب.. إلخ. وقد تجاهلت الصحيفة مواقف الحركة وتصريحات قادتها؛ فلم تعلق على خطابات رئيس مكتبها السياسي خالد مشعل، أو عضو قيادتها السياسية محمود الزّهار، أو بيانات جناحها العسكري كتائب الشهيد عز الدين القسام، الذي قاد غالبية عمليات المقاومة ضد العدوان الإسرائيلي، ولم تلق بالاً لما حلَّ ببعض قياداتها؛ كحادثة استشهاد القبايين سعيد صيام ونزار ريان، وغالباً ما اتسم الكلام عن الحركة بالسلبية، ومن الأمثلة على ذلك:

- كانت أول إشارة لحركة حماس في اليوم الخامس للحرب، وجاءت في معرض مطالبة الصحيفة لمصر بفتح معبر رفح لأنه - حسب الصحيفة - لا معنى لمعاناة المواطنين بسبب «مواقف حماس من فتح أو من مصر». ثم ذُكرت الحركة مرة أخرى عندما تحدثت الصحيفة عن الفرق في حجم الخسائر بين الطرفين، حيث تساءلت الافتتاحية قائلة: «فكم عدد ضحايا صواريخ حماس من الإسرائيليين؟ وهل يقارن هذا العدد بحوالي ٤٠٠ شهيد سقطوا حتى الآن في غزة؟»^{١٦}.

- جاءت الإشارة الثانية في معرض لوم الاحتلال على مستوى التدمير الذي أحدثه في البنية التحتية والمنشآت والمؤسسات التي « هي ملك للشعب الفلسطيني وليست خاصة بحركة حماس »^{١٧}.
- دعت الصحيفة وفد حماس المتوجه إلى القاهرة إلى تحمل المسؤولية، وإدراك « المخاطر التي تحيق بنا جميعاً . . . وتجنّب القطاع المزيد من التدمير والقتل والمعاناة »^{١٨}.
- ذكرت الصحيفة جمهور القراء بعدم تكافؤ الخسائر بين الطرفين فقد « قتل أربعة إسرائيليين نتيجة للصواريخ التي أطلقتها حركة حماس من غزة مقابل ٦٠٠ من المواطنين الأبرياء »^{١٩}.
- اعترضت الصحيفة على ما أسمته عدم وضوح في موقف حركة حماس من المبادرة المصرية، وتحميلها « الطرف الراض للمبادرة المسؤولة عن استمرار الحرب والعدوان »^{٢٠}.

النظام الرسمي العربي

أفردت صحيفة القدس للنظام الرسمي العربي ولموقفه من الحرب مساحةً كبيرةً، وناقشت في أكثر من ١٥ افتتاحية تأثير سلوكه في مجريات الحرب، وقد بدت لهجة الامتعاض واضحةً من ردود فعل النظام الرسمي العربي على الحرب، يظهر ذلك جلياً في وصفه « بالعاجز عن التأثير »^{٢١} أو « بالمساهم في إحباط جهود السلام »^{٢٢} أو بالذي مارس « الخذلان » للشعب الفلسطيني وساهم في إطالة أمد الحرب^{٢٣}.

لم تكتف الصحيفة بالتعبير عن غضبها على النظام الرسمي العربي وتحمله جانباً من المسؤولية فيما جرى في القطاع، بل انخرطت في أتون الانقسام الرسمي العربي الذي أجمته الحرب، فانحازت في خطابها الإعلامي « لدول الاعتدال العربي » وانتقدت بشدة سياسات « دول الممانعة العربية » ويمكن التذليل على ذلك بالآتي :

- مهاجمتها لبعض الدول العربية، فقد جاء تحت عنوان « كفى استغلالاً ومتاجرة بالدماء » أنه من « المفارقات التي لا يتخيلها عقل، أن دولة الفضاءية التي تقود حملة التحريض تقيم علاقات عميقة ومتصلة مع إسرائيل . . . في الوقت الذي لا يوجد أدنى مبرر أو قل ضرورة لمثل هذه العلاقات »^{٢٤}.
- التقليل من أهمية الدعوة القطرية لعقد قمة عربية، وتساؤلها عن الجديد الذي يمكن أن تضيفه القمة^{٢٥}.
- تأييد قمة الكويت الاقتصادية، واعتبارها مناسبة لمعالجة القضايا التي أفرزتها الحرب سواءً السياسية منها أو الإعمارية^{٢٦}.

الحوار الفلسطيني الداخلي واستعادة الوحدة

نادت الصحيفة بضرورة الوحدة ونبذ الانقسام، واعتبرت أن إعادة اللحمة للضفة والقطاع هو الرد المناسب على العدوان، واستهجن التباطؤ في تحقيق ذلك، وفي مراحل متقدمة أعلنت الصحيفة بأسها من إمكانية تجاوز الخلافات على الساحة الفلسطينية حتى في ظل الحرب على القطاع، فتحت عنوان: «انقسام يضيف لمعاناتنا الكثير» كتبت الصحيفة في افتتاحيتها قبل يوم على انتهاء الحرب تقول: «كنا نعتقد بأن العدوان الإسرائيلي بكل تداعياته وفضاعته وبالمأساة التي تسبب بها لقطاع غزة وهذا العدد الكبير من الشهداء والجرحى وهذا الدمار الهائل سوف يؤدي إلى طمس الخلافات وحالة الانقسام لتتوحد الصفوف في مواجهة خطر داهم يهدد في الحقيقة كل الشعب الفلسطيني وقواه على اختلافها».

أعتقد بأن صحيفة القدس قد عبّرت عن آمنيات الشعب الفلسطيني في وحدة فصائله وقواه السياسية خصوصاً في لحظات المواجهة الدموية مع آلة الاحتلال التدميرية، لكن فاتها المساهمة الجادة في حوار معمق يفضي إلى استراتيجية فلسطينية تحقق الوحدة، أو على الأقل تمنع حالة التدهور التي أصابت النسيج الوطني للشعب الفلسطيني.

الموقف الشعبي من الحرب في الضفة الغربية

لم تعر الصحيفة اهتماماً لردة الفعل الشعبية في الضفة، ولم تناقش الأسباب التي أدت إلى ضمور الدور الجماهيري في مناصرة القطاع، كما كان متوقعاً. ومع ذلك قدّمت الضفة في افتتاحيات الصحيفة على أساس أنها تتفاعل بايجابية مع ما يجري في القطاع وتقوم بواجبها على أكمل وجه، ففي افتتاحية اليوم الثاني من الحرب، أشارت الصحيفة إلى استجابة ضفاوية فورية للأحداث في القطاع حيث «خرجت التظاهرات، وقد عم الإضراب معظم المناطق، وعبّر المواطنون في مواقع مختلفة عن رفضهم للهجمات وتضامنهم مع إخوانهم في غزة». ثم تحدثت الصحيفة عن ما أسمته «الهبة الجماهيرية التي تشهدها مختلف أنحاء الضفة المحتلة»^{٢٧}

عاشراً: الموقف من المجتمع الدولي والدور الأمريكي الأوروبي

شنت الصحيفة منذ اليوم الأول من الحرب هجوماً شديداً على موقف المجتمع الدولي ممثلاً بمجلس الأمن والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وقذفته بسيل من الاتهامات والعبارات الشديدة وحملت المسؤولية عما يجري في القطاع. وقد تكرر الهجوم على المجتمع الدولي في أكثر من عشر افتتاحيات، فنذكر على سبيل المثال:

• وصفت الصحيفة العدوان الغاشم على القطاع بأنه «وصمة عار في جبين المجتمع الدولي

- وقادته ووصمة عار في جبين الرباعية»^{٢٨}.
- هاجمت الصحيفة الأسرة الدولية على موقفها من الحرب فهي التي « ليس لها من معنى الأسرة وما فيها من التعاطف والإنسانية سوى الاسم»^{٢٩}.
- استنكرت الصحيفة التصريحات التي أدلت بها وزيرة الخارجية الأمريكية رايس، والتي أوضحت فيها بأنَّ الموقف الأمريكي مع وقف لإطلاق نار لا يسمح بعودة حماس لإطلاق الصواريخ ووصفتها «بالمنحازة» لأنها تجاهلت « القصف الإسرائيلي المروع للمدنيين في قطاع غزة وتجاهل المجزرة التي يتواصل ارتكابها بأسلحة أمريكية... كما تتجاهل الدمار الهائل الذي ألحقته إسرائيل بالمنشآت والمؤسسات والبنى التحتية الفلسطينية»^{٣٠}.
- حملت الصحيفة الولايات المتحدة وأوروبا مسؤولية استمرار العدوان، واعتبرت القرار الصادر عن مجلس الأمن غير كافٍ « فهو يعطي إسرائيل المزيد من الوقت لاستمرار العدوان، كما أنه لم يندرج تحت إطار البند السابع وهذا « استخفاف أمريكي وأوروبي بالدم الفلسطيني»^{٣١}.

وعلى الرغم من موقف الصحيفة المدين لردة الفعل الأمريكية والأوروبية إلا أنَّها أظهرت وجود تمايز في مواقف الطرفين، فقد أشارت في معرض تعداد ردود الفعل المحلية والإقليمية والدولية المدينة للحرب بأنَّ «الإتحاد الأوروبي طالب بوقف فوري للعمليات العسكرية والعودة إلى التهدئة»^{٣٢}. كما قيِّمت تحرك وفد الترويكا الأوروبية والرئيس الفرنسي نقولا ساركوزي إيجابياً، لكنَّه غير كافٍ « ويجب أن يكون أكثر حسماً ووضوحاً»^{٣٣}.

خلاصة

احتدمت المعركة الإعلامية مع اندلاع الحرب على غزة في ٢٧ / كانون ثاني / ٢٠٠٨، وتساعد لهيبتها مع تصاعد وتيرة الهجمات الإسرائيلية وما رافقها من تصدٍ بطولي لقوى المقاومة الفلسطينية. وكان دور وسائل الإعلام بارزاً في نقل الأحداث وتحليلها ورسم سيناريوهات المحتملة، كما لعبت دوراً في التأثير على الرأي العام وتوجيهه بما يلائم خطابها الإعلامي ونظرتها للأحداث. ويمكن القول، وعبر مراجعة افتتاحيات صحيفة القدس طوال أيام الحرب، بأنَّها خطَّت لنفسها مساراً إعلامياً التزمت فيه بخطوط عامة منها:

- إدانة الحرب وإظهار مدى بشاعتها وخطورتها على وجود الشعب الفلسطيني ومستقبله.
- استنكار الموقف العربي والدولي الرسميين، وتحميلهما المسؤولية عن استمرار الحرب.
- الانحياز في النقاش الدائر حول الدور العربي الرسمي وآليات التصدي للحرب لدول الاعتدال العربي وخطابها الإعلامي.
- الجرأة في مهاجمة مواقف بعض الأطراف العربية على خلفية الانقسام العربي حيال الموقف من الحرب.

- تجاهل قوى المقاومة الفلسطينية، وعدم ذكر مواقفها وآليات مواجهتها للعدوان الإسرائيلي .
- شح القراءة التحليلية للحرب وأهدافها وتأثيراتها المستقبلية على المنطقة .
- التماهي مع الخطاب الإعلامي الرسمي الصادر من رام الله .
- الوقوع فريسة لبعض مقولات الإعلام الغربي المنحاز لوجهة النظر الإسرائيلية .
- استخدام لغة حيادية تجاه الحرب بشكل واضح وفي الكثير من الأحيان، رغم وحشيتها ودمويتها وأضرارها الجسيمة على الشعب الفلسطيني .

المصادر

١	صحيفة القدس، ٦/١/٢٠٠٩ .
٢	المصدر السابق، ٩/١/٢٠٠٩ .
٣	المصدر السابق، ٦/١/٢٠٠٩ .
٤	المصدر السابق، ١٦/١/٢٠٠٩ .
٥	المصدر السابق، ٢٩/١٢/٢٠٠٨ .
٦	المصدر السابق، ٢٨/١٢/٢٠٠٨ .
٧	المصدر السابق، ٣٠/١٢/٢٠٠٨ .
٨	المصدر السابق، ١/١/٢٠٠٩ .
٩	المصدر السابق، ٢٨/١٢/٢٠٠٨، ٣/١/٢٠٠٩ .
١٠	المصدر السابق، ٣١/١٢/٢٠٠٨ .
١١	المصدر السابق، ١/١/٢٠٠٩ .
١٢	المصدر السابق، ٩/١/٢٠٠٩ .
١٣	المصدر السابق، ١٤/١/٢٠٠٩ .
١٤	المصدر السابق، ٤/١/٢٠٠٩ .
١٥	المصدر السابق، ١٩/١/٢٠٠٩ .
١٦	المصدر السابق، ٣١/١٢/٢٠٠٨ .
١٧	المصدر السابق، ٢/١/٢٠٠٩ .
١٨	المصدر السابق، ٦/١/٢٠٠٩ .
١٩	المصدر السابق، ٧/١/٢٠٠٩ .
٢٠	المصدر السابق، ١٥/١/٢٠٠٩ .
٢١	المصدر السابق، ٢٩/١٢/٢٠٠٨ .
٢٢	المصدر السابق، ٣/١/٢٠٠٩ .
٢٣	المصدر السابق، ١٠/١/٢٠٠٩ .
٢٤	المصدر السابق، ٣٠/١٢/٢٠٠٨ .
٢٥	المصدر السابق، ١٥/١/٢٠٠٩ .
٢٦	المصدر السابق، ١٨/١/٢٠٠٩ .
٢٧	المصدر السابق، ٣٠/١٢/٢٠٠٨ .
٢٨	المصدر السابق، ٢٩/١٢/٢٠٠٨ .
٢٩	المصدر السابق، ٣٠/١٢/٢٠٠٨ .
٣٠	المصدر السابق، ٣/١/٢٠٠٩ .
٣١	المصدر السابق، ١٠/١/٢٠٠٩ .
٣٢	المصدر السابق، ١٨/١٢/٢٠٠٨ .
٣٣	المصدر السابق، ٦/١/٢٠٠٩ .